كلب أولياس
وكلاب أخرى

Del perro de olias y otros perros

Al-Andalus
Vol : VII - 1972
Fasc . 2

حكاية إسبانية من أصل عربي
كلب أولياس وكلاب أخرى

في الأدب الإسباني – مثل كل الآداب – حكايات وقصص كثيرة عن الكلاب ، لدينا كلاب من عظم ولحم ، إلى درجة أنها قادرة على التفلسف مثل ثبيون ، وبيرجانثا ، جمع ثيرفانتس لغتها ، وبقيت بعض الكلاب خالدة في أمثال وعبارات مأثورة ، ما تزال تتردد حتى اليوم ، لنذكر الكلب المشهور لأورتلانو ، وكلب أولياس ، وكلب إستجه ، وكلب الحداد ، (هذا الكلب الأخير لم يحظ بما حظى به الآخرون) .

أود في هذه الصفحات أن أتحدث عن بعض هاته الكلاب المشهورة راغبا في أن أدلل على أنها – وهي قشتالية ، وكما يبدو تخصنا تماما – كلاب منقولة من آداب أخرى ، من الأدب العربي ، أو من خلاله ، دون أن أغلق نفسي تماما في إطار انتقال شعبي محتمل – يعلم الله وحده من أين – خلال سبل معتمة من الممكن أن توضح فقط ، وقليلا الروايات المكتوبة ، وتتأكد أكثر حين تكون أشد قدما .

لدينا مثلا عن كلب البستاني المذموم عدة روايات ، كلها تتفق في الإشارة على أنه لم يكن نباتيا ، فضلا عن أنه في سلوكه مع البشر يبدو غريب الأطوار «كلب البستاني لا يأكل البقل ، ولا يدع أحدا يأكله » يقص علينا مترجمه القديم الماركيز دي سانتيانا : «كلب البستاني لا يأكل البقل ، ولا يدع الغير يأكله» . يقول لنا بثيانو :

هذا المثل الأخير منطقي إلى أبعد حد ، كان كلبا غيورا حارسا . «مثل كلب البستاني لا يأكل البقل ، ولا يدع أحدا يأكله» . في رواية المايسترو كورّياس حيث يكون في ذرعنا أن نفهم : «حاشا صاحبه ، وصاحب البستان» . ما تزال الرواية الأكثر حداثة متداولة بيننا حتى الآن ، وهي التي أضفت عليه شهرة سيئة : «كلب البستاني لا يأكل البقل ، ولا يدع حتى صاحبه يأكله»ما زال عندما مثل آخر جمعه هرنان نونييث يصور طريقته في حراسة البستان : «كلب البستاني ليس بجائع ، ولا بمكتظ» معلقا عليه : «ينبغي أن نعلم أنه : لا ينبح» .

في العصر الذهبي ، يخلد لوبي دي بيجا بطلنا في كوميديا عنوانها «كلب البستاني». لكن قبل ذلك بقرنين ، نرى خوان ألباريث جاتو في مقطوعات يعذل فيها سيدة على تقلب أطوارها ، وعلى ترددها بذكر المثل - بعد ذكره «شكاواها» التي لا تجني من ورائها شيئا «لا تأخذها ، ولا تدعها» محاولا أن يثير حميتها :

إنك تعلمين أنني أتتبعك

بحب كبير

فكلب البستاني

لا ينبغي أن تجعليه صاحبا لي .

كلب البستاني هذا مذكور منذ أمد بعيد في الأدب الأندلسي تحدث عنه ابن حزم في طوق الحمامة ، حسبما ذكر مترجمه دون إميليو غرثيه غومث ، في الطبعة الحديثة للأمثال في مجلة الأندلس التي جمعها الزجالي القرطبي (توفي في نهاية القرن الثالث عشر) . يبدو المثل بهذه الصورة : «كلب الورد لا يشم ، ولا يخلي أحد يشم» ذكره أيضًا ابن عاصم «توفي في الربع الأول من القرن الخامس عشر» ، ومن خلاله في وسعنا أن نعتقد أن كلبنا ما فتئ حيا حتى نهاية إسبانيا الإسلامية .

لكن لندع كلب البستاني في سلام ؛ لأنه ليس في ذرعنا أن نجني شيئا من بستانه، ولنر كلابا أخرى .

كلب أولياس :

في كوميديا «غدا يكون يوما آخر» الجزء الثاني ، جمع دون بدرو كالديرون دي لاباركا حكاية شعبية في زمنه بلا ريب ، في سبعة أبيات على لسان روكي الظريف ، مخاطبا دون فرناندو المتغزل . الحكاية مناسبة تماما في موضعها ، في المشهد الثامن عشر صنع روكي لصاحبه إشارة واضحة إلى الغداء :

سيدي ، الآن أنت

تتحدث حديثا مسهبا جدا ؟

هل تدري أن حماك

ينتظرك على الغداء ؟

تلك الإشارة التي لم يعرها دون فرناندو أية أهمية ، يلح في المشهد الثاني والعشرين على الحدث ذاته :

لكن نحن نمضي

دون غداء

وفي منزل ابنة عمك

قد تناولوا الغداء .

يسأله دون فرناندو : أليس للأمر أهمية . فيستغل الفتى هذه الفرصة لكي يقص الحكاية :

كما حدث لكلب أولياس

لرغبته في أن يحضر عرسين معا

ذهب إلى كابانياس في سرعة خاطفة

وحين وصل إلى هنالك وجدهم قد تناولوا الغداء

فعاد توا إلى قريته

فوجدهم قد تناولوا الغداء كذلك .

أعاد روكي الكرة على التوالي : «إذن لنأكل ، يا له من إلحاف من رجل قزم!» «الملوك طوال القامة .. ويأكلون ... إلخ» . لنعد إلى الحكاية :

أولياس هي أولياس دِلْ رِيّ ، وكابانياس هي كابانياس دي لاساجرا ، قريتان من أعمال طليطلة ، بينهما غلوة ، وبقيت أولياس في مثل يقول : «مثل عرسان أولياس» (لم يكونوا فيما نعرف أصحاب تلك العرس) ربما تحول في مثل آخر «مثل كلب أولياس» ليعود في هذه الصيغة : «مثل كلب الأعراس الكثيرة لا يأكل في واحد منها ؛ لأنه يريد أن يأكل فيها كلها» . وعلى كل حال ثمة صلة واضحة بين هذا المثل ، الذي جمعه المايسترو كورياس ، والحكاية التي يقصها كالديرون .

ثمة حكاية شعبية وثيقة الصلة جدا بهذا المثل في El motif Index of folk-Literature (motivo J 2183.1) ، حيث يبدو مختصرا بهذه الصورة :

في قرى تقع على تلال متقابلة ، يعزف الحراس أنغاما مصاحبة لوجبات الطعام ، فيتجه الكلب في اتجاه الموسيقى المنبعثة من إحداها ، لكنه ما إن يصبح في منتصف التل حتى تبدأ الموسيقى في الجهة الأخرى ، ويظل يتردد بين هذه وتلك صعودا وهبوطا حتى ينتهي الطعام ، ولا ينال شيئا .

وعلى التوالي يشار إلى المصدر «Pauli Ed.Bolte.» رقم 24 . الهند : «Tompson – Balys» . يقصد على التوالي طبعة Johannes Pauli : وطبعة Sqimpf und Ernst, الذي نشره جون بولتي في برلين «1924» . (1455 – Ca . 1530) في جزئين .

وكذلك طبعة Motif and Type Index of the oral Tales of India . لمؤلفها Stith Thomson y Jonas Balys. وكانت في مطبعة بلومنجتون «بإنديانا» سبتمبر 1955 ، وليس لدي أخبار كثيرة عنها .

لم أستطع للأسف الرجوع إلى طبعة بولتي من Schimpf und Ernst . حيث توجد - فيما أعتقد بعض تعليقات ، وكان عليّ أن أحدد نفسي في الطبعة القديمة لهرمان أوسترلي التي أقدم منها النص لحكايتنا ، وهو مختصر جيد من Elmotif Index يشير أوسترلي إلى مصنفين يبدو فيهما الموضوع ذاته Speculunn لبثينتي دي بياوبياس (1200 - 1264) وإلى Scherz mit der Warbeyt المنشور في فرانكفورت سنة 1563 ، أما الحكاية التي تضمنها مصنف بيثنتي بياوبياس فقد ذاعت شهرتها جدا خلال العصر الوسيط وما بعده ، مما يجعلنا نعتقد أن حكاية الكلب يمكن العثور عليها في كل مكان .

في البداية يمكن التفكير في أن حكاية كلب أولياس كانت ببساطة رواية إسبانية شعبية إلى درجة أن كالديرون نفسه صاغها في صيغة شعبية ، وفي أية حال فإن التغيير قبل كل شيء هو تحول الحصون إلى ضيعات (بأسمائها وصفاتها) والنفير للذهاب إلى المعسكر إلى موسيقى فرحة تعلن عن عرس في قرية - وإن لم يقل كالديرون ذلك - تصدح تلك الموسيقى - دون ريب - في أولياس وكابانياس.

يشير إلى الموضوع بوضوح - وكما هو معروف - ميرا دي أميسكوا في «عبد الشيطان» الذي وضع على لسان دومنجو - إحدى الشخصيات - ما يلي : «كان عرس الكلب هو ذلك العرس» على ما أشار به عليّ - مشكورا - صديقي العزيز الإسبانستا الكبير ماكسيمي شيفالير الأستاذ في جامعة بورديوس .

ثمة حكاية لها نفس الباعث ، وهي بلا ريب قديمة من قرون ، منذ جمعها المصنف ، في «أنيس الجليس» للأديب المصري الكبير جلال الدين السيوطي

(849 – 911 / 1445 – 1505) ، لم أستطع العودة إلى هذا الكتاب مباشرة ، ولذا رجعت إلى نص الحكاية منشورا في مجاني الأدب للأب شيخو . وإن كان الباعث التربوي لهذه المنتخبات المشهورة وراء تغيير بعض النصوص لتسهيل فهمها ، وإن كنت لا أعتقد أن هذا حدث لموضوعنا ، وحتى على فرض حدوثه ، فإن التغيير ليس بذي أهمية ، يقول السيوطي :

حكى أن كلبا كان من عادته إذا سمع صوت طبل في مكان يذهب إليه ، ويظن أن فيه عرسا أو وليمة . فعمل الناس حيلة على ذلك الكلب وتواطؤوا بأن يضربوا الطبل في قريتين كلما أتي الكلب إلى مضرب الطبل يسكت ويضرب في القرية الأخرى . ففعلوا ذلك ، فجعل الكلب يجري بين القريتين كلما جاء قرية منهما أسكتوا الطبل وضرب في القرية الأخرى . ولم يزل كذلك حتى مات الكلب جائعا عطشان .

رواية كالديرون أقرب إلى رواية «أنيس الجليس» منها إلى Schimpf umd Ernst (من خلال إشارتي إلى النص الذي رأيته مباشرة) . في كتاب السيوطي يحدث الحدث في بيئة قروية لا عسكرية ، والباعث الذي دفع بالكلب إلى الذهاب من مكان إلى آخر ليس بوق المعسكر ، بل الموسيقى التي تصدح في أعراس قروية ، يكون فيها دائما أطعمة جيدة وكثيرة . أهمل كالديرون تفصيل الطبل Atabal (في إسبانيا الإسلامية – على العكس – كانت تستخدم كلمة البوق Albogue) وثمة إشارات كثيرة إلى استخدامه في الأعراس ، مناوءة لما كان يصرخ به الفقهاء «المتزمتون» . لكن كلبه استطاع إلى حد بعيد أن يصل إلى كابانياس (في سرعة خاطفة) لأنه علم أن هناك عرسا ، ويروم العودة إلى أولياس حيث يقام عرس آخر، وأن يعود في العرسين ممتلئ المعدة في عام خصيب .

وبالعكس ، فإن الرواية العربية ذات نهاية مخالفة ، بينما في الأخريات الكلب البائس (يقدمه باولي بعبارة 'ein nerrischer hund' بيد أنه يترفق به فيما بعد فيطلق عليه (der arm hund)

ويظل متلمظا دون أن يتدخل أحد في ذلك ، وفي أنيس الجليس ، القرويون واعون برد فعل الحيوان ، فيخترعون الأملوحة القاسية التي كلفته حياته ، ومع ذلك أعتقد أن هناك إضافة لاحقة باعثها كراهية المسلمين للكلاب منذ عهد النبي (ص) الذي كره الكلاب لقومه حسبما تروي الأحاديث .

لم أيأس من العثور على روايات عربية أخرى أقدم ، ففي ثمار القلوب للثعالبي عثرت على شرح للقول المأثور «راكب اثنين» يضرب مثلا لمن يعمد لشيئين اثنين فما يتحصل منهما على شيء ويتضرر بذلك . غير أنه لا يقص علينا الحكاية التي ننتظرها، بل يستشهد بثلاثة أبيات من الشعر لقائل مجهول تشرح القضية .

كلب الحداد :

يضم القسم الثاني من الأيكة الإسبانية لمتشور دي سانتاكروث ، وفي الفصل الثاني منه بعنوان «عن الفرسان» الحكاية رقم 7 ، التي تقول ما يلي :

تعود تابع فقير أن يأتي ساعة غداء القونت دي أورينا وكان القونت يعرف حاجته ، فكان يصر أن يأكل في داره ، ذات يوم أخبر أن ضجة في القصر ، ولم يجد التابع هناك ؛ إذ تعود أن يذهب ساعة الغداء ، قال له القونت : تنام على صوت المطارق وتصحو على صوت المضغ ، مثل كلب الحداد : لن تظل معي بعد ذلك .

ليس ثمة أدنى إشارة حول تلك الحكاية في مقدمة الناشر إن الأمر بالتأكيد يدور حول حكاية شائعة تحولت إلى مثل . وإن كان هذا لم يبد في صيغة تقليدية ، وفيما يخص حكايتنا ، يبدو أنه يشير بدوره إلى حكاية أخرى ، حكاية شعبية بلا شك لمن يحيا الظروف نفسها ، تذكارا أخيرا .

يبدو المثل في «الأمثال» أو المرددات المأثورة في الرومانثي ، التي جمعها وشرحها القومندادور هرنان نونييث في صورته هذه : «كلب الحداد ينام على صوت المطارق، ويصحو على مضغ الطعام» .

جمعه في الصيغة ذاتها ، فيما بعد ، المايسترو جونثالو كورياس في معجمه ، كذلك نراه في ذخيرة اللغة القشتالية أو الإسبانية لسباستيان دي كوبارو بياس ، ولم يُشرح المثل في كليهما ؛ لاعتقاد المصنفين أن الشرح غير ضروري دون شك ، وقد وجدت المثل معلقا عليه في حكاية مؤرخة بدقة مجموعا في «الفلوريتو» نشره سانشث كانتون، أنقله فيما يلي :

في موقعة أوليدو انتصر الملك دون فرناندو الرابع فوزع عطايا على من ساعدوه في المعركة ، حين صنع هذا بعث القونت دي هارو بدرو إرناندث دي بيلاسكو – وكان معاصرا لتلك الموقعة – وقد أسر هو واثنا عشر راهبا في مدينة دي بومار بلباسهم الأحمر القاني ، بعث بمذكرة قرئت في مجلس الملك ، الذي قال : انتظروا ، فالقونت دي هارو مثل كلب الحداد ينام على صوت المطارق ، ويصحو على صوت المضغ ، ومع كل هذا طلب عشر البحر ، والملك أعطاه ، إنه دخل ميت ، فعقد سلام مع فرنسا يدر دخلا أفضل من أربعين ألف دوقية .

إذا اعتقدنا صدق الرواية ، فإن المثل ظل حيا في قشتالة إلى منتصف القرن الخامس عشر ، ومن الطبيعي أن نعتقد أنه مثل قديم ، فقبل ذلك بسنوات طويلة قبل هذا التاريخ (موقعة أو ليدو كانت في سنة 1467) جمع هذا المثل في صيغته العربية الوزير الأديب الغرناطي ابن عاصم في كتابه حدائق الأزاهر ، وإن كانت قراءة المثل في طبعة فاس الحجرية تتعثر لخلل في كلمتين اثنتين ، تقول الرواية :

كلاب الحدادين يرقدوا للزبار؟ ويقم (هكذا) للعم (للقم) ؟

الكلمة الأخيرة سهل تصحيحها للمعنى ، وبمساعدة المثل الإسباني ، وقد وضعت كلمة استفهام ، ومن الممكن تصحيح العبارة في ضوء النص الذي أتحدث عنه فيما يلي :

لم أعثر على أية حكاية إسبانية تتحدث عن كلاب الحدادين (مع العلم أن من السهل إنشاء حكايات أخرى على نمط هذا المثل) بيد أن في العربية حكايات تنسب إلى لقمان، تقول إحداها ما يلي :

حداد كان له كلب، وكان لا يزال نائما ما دام الحداد يعمل شغلا، فإذا رفع العمل وجلس هو وأصحابه ليأكلوا خبزا استيقظ الكلب. فقال الحداد : «يا كلب السوء. لأي سبب صوت المرزبات الذي يزعزع الأرض لا يوقظك، وصوت المضغ الخفي إذا أنت سمعته واستيقظت».

لقمان من الشخصيات التي دار حولها نقاش كثير في الإسلام، وقبل الإسلام. ذكره القرآن الكريم، وظل باقيا عبر القرون في الأدب العربي، يلعب أدوارا مختلفة. في عصر الوثنية جسد الحكمة، والبطولة، وطول العمر، (مئات أو آلاف من السنين) ويذكره القرآن عالما، ورجلا حكيما، وصنعت منه الأعراف التالية شخصية أسطورية يمتزج فيها البطل بالعالم، بالشاعر الحكيم، القصاص، ومن خلال هذا الوصف الأخير تتعانق حكايته بحكاية إيسوب، وكثير من الحكايات المنسوبة إلى لقمان، منسوبة كذلك إلى الراوية الإغريقي.

إحدى هذه الحكايات هي التي نتحدث عنها، والإشارة إلى المصادر المشرقية المذكورة فيها (صعب أو مستحيل الحصول عليها في مدريد) موجودة في مصنف كلاسيكي لشوفين، ولم أرها شاعرا بعدم الرغبة في الولوج إلى مشاكل دقيقة تطرحها روايتها.

حين عالجت هذه الحكاية صنعت ذلك مفكرا في أن الأمر ذو دلالة على أن كلب الحداد غدا مضرب المثل، وهذا المثل التقطه ابن عاصم من الذين استخدموه في غرناطة النصرية، وغدا أيضًا مضرب المثل في العدوة الأخرى من التخوم، وله حياته المستقلة.

لكني لن ألج من جديد في موضوع صعب كموضوع الأمثال ، التي طلع علينا بجديد كثير حولها في هذه المجلة (وفي غيرها المايسترو غرثيه غومث) وما زال لديه - فيما أعتقد - أشياء جديدة حول هذه القضية .

كلاب لا تعرف اللاتينية :

تضم الأيكة الإسبانية للتشور دي سانتاكروث ، في الفصل الثاني «عن الكرادلة»في القسم الأول حكاية رقم 9 ، تقول ما يلي :

كان راهب من بسكايا تابعا للكاردينال دون بدرو جونثالث دي ميندوثا ، قد تأبط سلاحا ، فرآه الكاردينال فنصحه قائلا : إن من العيب أن يتأبط الراهب سلاحا ، فرد عليه الراهب الباسكي : سيدي الكاردينال : لم أتأبط سلاحا لأوذي أحدا ، بل لكلاب هذه الناحية لأنها شرسة جدا ، فقال له الكاردينال : حين يهاجمك كلب ، ولكي تكون في مأمن ، ولئلا يصيبك بسوء ، فاقرأ عليه بعضا من إنجيل القديس يوحنا ، فرد عليه الباسكي : سيدي ، ما زال ضروريا حمل سلاح ؛ لأن بعض الكلاب لا تعرف اللاتينية .

ناشر الأيكة : ر . بينبتث كلاروس الذي تحدث في مقدمته الموجزة عن صعوبة الوصول إلى مصادر الكتاب ، والذي أشار إلى مصادر بعض الحكايات - لم يشر أية إشارة إلى مصدر هذه الحكاية ، ولا عن ورودها في كتابات مؤلفين لاحقين ، والأمر حكاية تقليدية لها روايات أخرى في الأدب الإسباني .

يستخدم لوبي دي بيجا في أحد مصنفاته المشهورة الميلودراما «بيري بانييث والقومنادور دي أوكانيا» - تلك الحكاية ، مصورا لها في تمثيلية ، مغيرّا وموسعا في عدد الشخصيات ، يختفي الكاردينال ، ولكي يجعل المشهد عاطفيا ، جعل الكلب عجلا ، بل ثلاثة عجول ، تقول الحكاية ما يلي :

راهب : ما هذا ؟

بارتولو : ألم تره في صخبه ، وضجته ؟

راهب : إذن ، أهم أحضروا العجل ؟

بارتولو : كيف يكون عجلا واحدا ، إنها ثلاثة عجول ،
غير أن الرماد الذي يحضرونه الآن
من الحقل ، يحيي الشمس التي
تحمل الوهج الإسباني!!
لم يسطع في أي لحظة .
لقد لف مرتين حول براس
ولم يستطع أي إيطالي
أن يمضي بهدوء ،
وبهذه الطريقة أبدا .
على فرس أنطون خيل
التي أخذوها مؤخرا من الحقول الخضراء
ببطنها الممتليء ،
تنظر إلى العشب .
ليس مزاحا ، أن نزعوا سراويل توماس
لم يبقوا له شيئا على ما رأوا

وإن كان لم يحلق ذقنه أبدا

وصاحبنا القومنادادور دي أوكانيا

هو وأرضه ،

شجاع في هَمْزِه

أشجع من الصقر

أقسم بشرفي :

لو لم يكن العجل يحمل شريطا ...!!

راهب : هنا . ألا يستطيع الدخول ؟

بارتولو : كان بوسعه قبل ذلك .

راهب : إذن ، يا بدرو . بهذه الطريقة

أثب إلى سطح البيت

كونستانثا : اتل عليه إحدى التراتيل الدينية ؛

لأنه لا يليق أن تهرب يا سيدي الراهب .

راهب : ترتيل ! ولأي هدف ؟

كونستانثا : لأي هدف!! للصمود .

راهب : إنها مخدوعة . إذ إن بعض العجول

لا تفهم اللاتينية جيدا .

ما يزال لوبي دي بيجا يذكر حكايتنا (إذا كانت الكوميديا له)

في «المعرفة لعدم المعرفة» .

خوليان : في الواقع :

بما أنك ذكّرتني بمرج عند مدخل البيت

أردت أن أراه مرة أخرى

لم تكن هناك عجول ، بل كانت ثيرانا :

وصلت إلي .

تومي : أية حماقة !!

خوليان : اقترب مني ثور

وعندما أراد نطحي

نزع مسبحته ، وقال :

أية حماقة !!

تومي : لا ، يا أبي .

لكن انظر ، إنه طوال حياته

لم ير ثيرانا تعرف الصلاة

ويستطيع أحدها أن يطوح به في الهواء .

لماذا يسير بصحبة كلاب

هل يريد أن تنهشه في إحدى المرات

خوليان : أعرف صلاة باللاتينية أصليها في وجه تلك الكلاب

تومي : هناك كلاب لا تفهمها

بل تعض مسعورة ،

ولا يوجد شيء تطمع فيه الكلاب

مثل ثياب الراهب .

في هذه الروايات الجديدة التي فرغنا منها في التو ، تغيرت حكاية الأيكة في حرية تامة ، مركزة على المغزى الجوهري للحكاية ذاتها ، اختفى في كليتهما الكاردينال ، والراهب – الضحية المزعومة ، للحيوان المتوحش – الذي يمثل وحده رجل الدين الإكليري ، وفي كليتهما يمشي الراهب دون سلاح ، لم يكن ثمة خطر حتى لحظة ظهور العجل / الثور الهائج ، وفي بيري بانييث إجابة الراهب لكونستانثا – التي يستقر في قرارها البسيط إيمان ساذج ، وتعتقد في المعجزة الفعالة لأية صلاة لكبح جماح العجل – هي الإجابة ذاتها التي تحوي سخرية فولتيرية رقيقة للراهب الباسكي في الأيكة .

وفي «المعرفة لعدم المعرفة» فحوى الحكاية أكثر تطورا – لنقطة الانطلاق المزدوجة – مع تغييرات مهمة – وكما هو في بيري بانييث ثيران تتميز بلونها «المحمص» ، وفي بيري بانييث تحمل لون «الهباب» ، لكن هناك حالة واحدة في كل الروايات الإسبانية التي يأتي فيها – على وجه الاحتمال – الراهب ذو الإيمان المطلق دون حدود ، والذي يستخدم في مواجهة الخطر شيئا يعتقد أنه فعال – وهكذا في النهاية : الصلوات . بينما محاوره تومي رجل واقعي دون أن يحمله على العكس ، إذ يتقدم قائلا له : هناك عجول لا تفهم الصلاة ، إجابة توافق تغير الظروف ، هنا من الممكن أن ينتهي المشهد الذي تبادلت فيه العناصر ، والمحصلة البسيطة لحكاية الأيكة هي العنصر الفكاهي للكوميديا ، والشيء المفاجيء هو إنتهاء عناصر النكتة،

يقصه المؤلف المسرحي مرة أخرى طارحا الموضوع مع الكلاب - يعود كلب الأيكة مرة أخرى - فالراهب ، خوليان ، الوحيد من بين الجميع - الذي يعتقد في فعالية كرامة الصلاة ، يقول الجملة المعهودة : أعرف صلاة باللاتينية أصليها في وجه هذه الكلاب «ويجيبه تومي بالإجابة المعهودة أيضًا : «هناك كلاب لا تعرف اللاتينية» شارعا في النفاذ إلى حصن الراهب الأخير ، متصديا له بدليل آخر : «لا يوجد شيء تطمع فيه الكلاب مثل ثياب الراهب» ، ينبغي أن يقال لشرح اليقين الذي يتمتع به خوليان ، إن الأمر ليس متعلقا براهب عادي ، بل بالقديس خوليان شفيع قلعة عبد السلام الذي يصنع معجزات طوال الكوميديا .

جمع دون بيرناردينو فرناندث دي بلاسكو دوقي دي فرياس حكايتنا في «لذة الحكمة» في رواية تتصل برواية الأيكة كما يبدو الآن :

يحكى أن أسقفا صالحا كان يحضر إليه بصورة دائمة ، أحد الرهبان ، ويحمل تحت عباءته فأسا Alfanje ، فناداه ونصحه بعنف ، فحاول الراهب أن يعتذر بأنه يستخدمها لدرء الكلاب عن نفسه ، فقال له الأسقف الصالح بوضوح : «لا يا بني لا ينبغي حمل السلاح من أجل هذا ؛ إذ حسبك تلاوة إنجيل سان خوان لتنجو من العض» ، فرد عليه الراهب : سيدي : إذا كانت الكلاب لا تفهم اللاتينية فكيف أنجو من خطرها .

لا نكاد نجد تغييرات ، فالراهب الباسكي في الأيكة هو هنا راهب ما ، والأول يحضر سلاحا تحت عباءته ، والثاني يحضر فأسا والكاردينال المذكور تحول إلى أسقف ، وكلاهما ينصح بتلاوة إنجيل سان خوان ، وكلاهما يتلقى إجابات مماثلة في عبارات متوقرة ، وإن كانت تحمل السخرية اللاذعة نفسها .

ما زال لدينا رواية أخرى للحكاية تنسب إلى دون بابلو دي خيريكا (1781 - 1831) في أعماله الشعرية ، هذا العبقري نظم حكاية الأيكة شعرا ، ولابد أنه اطلع على

رواية دوقي دي فيرياس – دون أن يغير شيئا ، وإن كان قد حدد أيضًا نتيجته ، فالراهب الباسكي عند ملتشور دي سانتاكروث راهب باسكي ، (وهو عنوان الحكاية) عند بابلو دي خيريكا :

كان راهب باسكي

قد تعود أن يحمل سلاحا كبيرا ، ويخفيه ،

فاتفق أن رآه الأسقف ، الذي وعظه بعنف ؛

لحمله شيئا لا يتفق ومظهر الراهب .

فقال له الراهب : إنه يحمله فحسب ليدرأ

به شراذم الكلاب التي تكثر في تلك الناحية .

قال له الأسقف حين سمع منه ذلك :

ستكون آمن السرب إذا حملت كتاب الصلوات ،

وإذا استخدمت الوسيلة الفعالة

بقراءة إنجيل سان لوقا ، وسان خوان

فرد عليه الباسكي وهو في هيئة الجد :

لا ضير من حمل السلاح ؛

فإن كلاب بلادي

لا تعرف اللاتينية .

الرواية الجديدة بين بين كما قلت ، بين رواية الأيكة ورواية «لذة الحكمة» ، هنا يوصي الأسقف بقراءة إنجيل سان لوقا وسان خوان ، وإجابة الراهب قيلت

بكلمات أخرى تلتقي في المانع وهو عدم معرفة الكلاب في ناحيته المعروفة باللاتينية، لكنها الرواية الوحيدة التي يصر فيها الراهب في خشية واحترام على أنه من المناسب حمل السلاح في كل الأحوال ليأمن على شخصه .

أصل واضح لحكايتنا ، حكاية جمعها ابن العبري (1225 أو 1226 – 1286) ، وهو شخصية مشهورة ومهمة في الكنيسة اليعقوبية ، معروف أكثر باسم : Bar Hebraeus كان آخر الكتاب الكبار في اللغة السريانية ، إلا أنه كان يهيمن على لغة العرب التي كتب فيها عدة مصنفات ، وعرف بأنه مترجم ابن سينا إلى السريانية ، وكتب في تلك اللغة مجموعة حكايات عنوانها : Kthábá dh^{e} thunnayé m^{e} ghahh ^{e}kháné ونشرها في ترجمة إنجليزية عنوانها : فكاهات وحكم شرقية أو قصص ضاحكة . لندن (1897) المستشرق الكبير : E . A . Walis Budge

لم أعرف هذه الترجمة التي أفاد منها كثيرا رينيه باسيه في كتابه ألف حكاية وحكاية ، وقد ترجم مصنف ابن العبري – حسب كل القرائن – إلى العربية ، لكنها ترجمة مفقودة ، وما زالت مفقودة حتى الآن كما يشير إلى ذلك J . B . Segal ، محرر مقال عن العبري في الطبعة الثانية في دائرة المعارف الإسلامية ، ومع ذلك نشر مخطوط هذا الكتاب العلامة الأب شيخو منذ نصف قرن في مجلة المشرق ، في بيروت ، هذه المجموعة عنوانها بدءا «دفع الهم» ، ثم سماها – ربما لدفع غموض مع عمل آخر مجانس لها في الاسم – الأحاديث المطربة ، وتحمل رقم 518 في طبعة شيخو في فصل عنوانه : «أحاديث بعض الظرفاء» ، تقول ما يلي :

سمع بعضهم رجلا يقول لرفيقه : إن سرت في الليل وأردت أن الكلاب لا يؤذيك فاقرأ في وجههم المزمور الذي في الآية : «خلص يا رب من فم الكلب واحدتي» ، فقال السامع : بل ، دعه يأخذ في يده عصا لأنه ليس الكلاب كلها تفهم المزامير إلا القارئين منها فقط .

لم أصادف مشقة في التحقق من الآية في موضوعها ، وهي من المزمور رقم 22 الذي ترك صدى كبيرا في العهد الجديد ، لنر الإطار الذي يحتوي على الاستشهاد من الحكاية حسب ترجمة دون فرانسسكو كانتيرا ، أشير إلى رقم الآيات التي تقول : احذر يا يحيى ، لا تبعد عني ، اشدد أزري ، بادر بنجدتي ، اعتق روحي من السيف ، وحياتي الوحيدة من أظافر الكلب ، ومن برائن الأسد ، ومن قرون الجاموس» .

الكلمات التي تحتها خط هي المشار إليها في حكاية ابن العبري ، مع تغييرات أظافر بدل يد ، وقد استشرت النص العبري في التوراة نشره : R. Kittel (Salmos 21) – 22 يقول النص حقيقة «يد الكلب» وفي هامش التحقيق لم يشر إلى أية تغييرات في تلك الآية ، ولا في مخطوطات عبرية أخرى ، ولا في روايات قديمة في لغات أخرى ، الأمر الذي يقودنا إلى واحدة من اثنتين : إما أن تغيير ابن العبري يقصد تطابق الوضع ، وإما أن هناك قطعا بين الآية التالية حيث تبدو في الواقع كلمة فم الأسد .

ومهما يكن من أمر فإن ما يعيننا هو أن الحكاية في جوهرها هي ذاتها التي نعالجها ، وإن كان الحال وتوزيع الأدوار مختلفا ، لم يشر إذا ما كان الرجل الذي يوصي وصية طيبة رجل دين ، ولا كذلك من يتلقى الوصية .

الأمر أن هناك صديقين ، ليس أحد منهما – قيل هذا في مناسبة أخرى – منذورا للحياة الدينية وإن كان كلاهما متدينا ، كذلك لا نرى سلطة في الشخص الذي ينصح ، وهو هو في الحكايات الأخرى ، ما عدا الشكل ، والنص الإلهي الذي يوصي بتلاوته . والمستقبل للنصيحة نلمحه في هذه الرواية سلبيا حقيقة ، إذ هو شخصية جديدة مقدمة في بداية الحكاية القصيرة ، والذي يتوسط يمنح بدوره نصيحة جديدة : يوصي بمصاحبة العصا ، لأن كل الكلاب لا تفهم المزامير إلا القارئين منها فقط .

حاشا هذه الاختلافات ، وهي هينة ، يبدو من الطبيعي الموافقة على أن الأمر عبارة عن الحكاية نفسها التي في الأيكة مع الملائمة الواجبة التي يفرضها اختلاف الحقبة ، والمشهد ، والبيئة الروحية ، والآلة الحادة الموصي بها في رواية ابن العبري تحولت إلى سلاح أبيض في كل الروايات الإسبانية ، وتغير أيضًا النص المحقق لمراعاة الحال : في الروايات الإسبانية دائما ، إنجيل سان خوان (وسان لوقا في الرواية الأخيرة) أي العهد الجديد في مواجهة المزامير في الرواية المشرقية ، والعهد القديم الذي لم يكن موصًى به في إسبانيا في القرن السادس عشر ، وبعد ذلك لأسباب واضحة جدا ، وأوضح منها أن يرد على لسان راعي كنيسة .

ما بين ابن العبري وملتشور دي سانتاكروث حلقات مفقودة ، ومن غير المفيد وغير المناسب التصدي لتخرصات ، حكاية مكتوبة أو حكاية شعبية ، أعتقد أنه من المهم الإشارة ولاسيما في هذه الحال الأخيرة – إلى أنه يبدو أكثر احتمالا أن المعالم قد اتضحت في أن حكاية شعبيةقد سجلت كتابه .

نعود إلى فحوى حكايتنا ، إذ هي في جوهرها محاولة لمنع الشر من خلال مسرى سحري ديني ، أو من خلال اللاأدرية أو ببساطة عبر طريقة واقعية ، أود أن أنقل هنا حكاية لابن العبري ذاته ، ومن كتابه نفسه ، ذات صلة وثقى بالحكاية التي رأيناها الآن ، تقول ما يلي :

رأى رجل صديقا له مبتلى بوجع العينين فسأله : بماذا تطبب عينيك؟ أجاب : بمزامير داود وصلوات أمي الراهبة ، فقال له : ولا بأس لو أضفت إلى ذلك قليلا من الكحل .

في هذه الحكاية أيضًا تبدو مزامير داود ذات فعالية بجانب صلوات الأم الراهبة ، وهما العلاج الوحيد للمريض المؤمن ، والصديق الواقعي – وهو هنا كذلك يسخر في لطافة – يميل أكثر إلى العلاج المجرب بطريقة علمية .

ليس من الفضول – والأمر يتعلق بالموضوع الذي ندرسه – الشرح الذي صنعه خوان دي مال لارا للمثل الإسباني : «أدعو الله ، ولا أدع الطرق بالمطرقة» . وهو

بالدقة مستهل المجموعة الأولى من كتابه : «الفلسفة الشعبية» ، ومن هذا التعليق وددت أن أنتزع بعض الفقر ، ومثلا ذا صلة بحكاياتنا .

لكن في النهاية ، يحتم العقل حين نريد عمل شيء أن نتذكر الله أولا ، الذي يجب أن نتوجه إليه ، ونسأله ، وبعد ذلك نهتم ، ولا ننتظر معجزات جديدة في كسل لا يفيد ، منتظرين يد الله التي نعرف قدرتها غير المحدودة ، لكن لا نطلب عونه على الفجور (دون أن يكون ذلك في ضميرنا) ولنفكر أن كل شيء بقدر (كما يقول اللايتنيون) بإرادة الله ، وبفضله ، كل شيء وضع مع حكايات الأطفال والعجائز الذين لا يقدرون على العمل ، وفضل الله يعمل لهم ما يريدون ، وبهذه الطريقة إذا سقط شيء فلا نرفعه ، وإذا ضاع شيء فلا نبحث عنه وإذا رأينا مالنا يضيع فلا نملك له دفعا ، حسب ما يعرف العقل الإنساني ؟ وهذا شيء أكيد من الله معتقدين أن الله يصنع معجزة ، حيث يعلم الناس أن الله يقول : ساعد نفسك أساعدك وهذا شيء مستمد من الحقيقة التي يجب علينا أن نهيئ الأسباب لكى تأتي الإرادة حسبما نريد . من ألف عمل كل ما نبلغه من السعي ، لم يولد الإنسان للعمل ! لا ينعم الله على من يلجأ للكسل ، متخذا ذلك ذريعة لرجاء الله ، وبهذا يدق بالمطرقة ، لأن العمل يقع على عاتقه ، ومن الواجب أن يقرن ذلك بالصلاة الخاشعة .

يوضح مال لارا الجزء الثاني من المثل ، لنر نقطة البداية التي انطلق منها الموضوع مع مثلين ، لنحدد أنفسنا في المثل الأشهر :

يحكون أن حوذيا كان يقود عربة محملة ، تحطمت منه في الطريق ، مر به سان برناردو ، حين وصل إليه ، وبشهرته بحياته الصالحة المقدسة قال له الرجل : ادع الله أن يسلم لي العربة بجاهك عنده ، قيل إن القديس قال له : سأدعوا يا صاحبي ، وأنت خلال ذلك اطرق بالطرقة .

أعتذر لطول الاستشهاد الذي دفعني إليه غرابة الفلسفة الشعبية ، ولا أقول إن مال لارا كان عليه أن يوصي بالعصا (أو بالسلاح) وبالكحل .